السنة الخامسة والثمانون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم أمر السلطان بعمارة جامع السلطان قريباً من دار المملكة على باب بغداد، وتولَّى السلطانُ تقديرَه وذَرْعَه بنفسه، وجمع له المنجِّمين وأرباب الرصد والهندسة، وندب للإشراف على عمارته قاضي القضاة أبا بكر الشامي، ونقلوا أخشابه من جامع سامرَّاء، وأمر بعمارة الأسواق حول داره، فعوجل في هذه السنة، ومطلت عمارة الجامع حتى تمَّ سنة أربع وعشرين وخمس مئة.

وفي النصف من ربيع الأول توجَّه السلطان من بغداد إلى أصبهان، وخرج معه الأمير أبو الفضل جعفر بن الخليفة[١].

وذُكِرَ في بعض التواريخ أن تُتُش قدم بغداد في هذه السنة شاكياً من آق سنقر، فلم يلتفت السلطان إليه، فترك ابنَه عند السلطان وعاد إلى دمشق.

قال المصنف رحمه الله: وهذا بعيدٌ؛ فإن السلطان وصل حلب ولم يَلْتَقِه تُتُش لأنه كان مستوحشاً منه.

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الأول وقت الظهر وهو السادس من نيسان اقترن زُحل والمريخ في برج السرطان، وذكر أهل صناعة النجوم أن هذا القران لم يحدُثْ مثلُه في هذا البرج منذ بُعِثَ النبيُّ ﷺ وإلى هذه السنة، فكان من تأثير هذا القران هلاكُ ملك شاه سيد الملوك، ومقتل نظام الملك سيد الوزراء.

وفي غُرَّة رمضان توجَّه السلطان من أصبهان إلى بغداد بنيةٍ غيرِ مرضيةٍ في حقِّ الخليفة، وعزم على تغييره، وكان معه النظام، فقُتِلَ في عاشر رمضان في الطريق ووصل السلطان [إلى][٢] بغداد ثامن عشر رمضان، وقد حزن على نظام الملك على ما قيل، فلما قارب بغداد خلع الخليفةُ على عميد الدولة جبراً لمصابه بنظام الملك؛ لأنه صهره على ابنته، ولما نزل السلطانُ داره ثاني عشرين رمضان يوم السبت دخل عليه عميد الدولة وهنَّأه عن الخليفة بمَقْدَمه، وبعث السلطان يقول للخليفة: لا بُدَّ أن تترك

(١) الخبران في المنتظم ١٦/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) مابين حاصرتين من (ب)، والمنتظم ١٦/ ٢٩٩ ـ والخبر بنحوه فيه ـ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٤.

لي بغداد وتذهب إلى أيِّ بلد شئت. فانزعج الخليفة، وبعث إليه يقول: أمهلني شهراً. فقال: ولا ساعة. فأرسل الخليفةُ إلى تاج الملك أبي الغنائم، وكان السلطان قد استوزره، فقال: سَلْه أن يؤخِّرَنا عشرةَ أيام. فدخل تاجُ الملك على السلطان وقال له: لو أنَّ بعض العوام أراد أن ينتقل من دار إلى دار لم يقدر على النقلة في أقلَّ من عشرة أيام، فكيف بالخليفة وخدمه وأهله وأسبابه؟ فيحسن أن يؤخَّر عشرة أيام. فقال السلطان: يجوز. ومرض السلطان ومات بعد أيام، وعدَّ الناسُ من كرامات[1] الدولة العباسية موتَه.

وفيها وقع[2] بالبصرة بَرَدٌ وزن البَرَدة خمسةُ أرطال إلى اثني عشر رطلاً وأكبر، فهدم الأبراج المبنيَّة بالجصِّ والآجرِّ، وقلع عامة النخيل، وأهلك خلقاً كثيراً، وخرج الناس للحجِّ، فنهبهم بنو خفاجة، فعادوا.

وفيها تُوفِّي

نظام الملك[3]

الحسن بن إسحاق بن العباس، أبو علي الطُّوسي، ولد بطُوس، وكان من أولاد الدَّهاقين وأرباب الضياع بناحية بَيْهَق، كان عاليَ الهِمَّة، إلَّا أنه كان فقيراً مشغولاً بسماع الحديث والفقه، يخدم أبا علي بن شاذان المعتمد عليه ببَلْخ كاتباً بين يديه، فكان في كلِّ وقت يصادره، فهرب منه إلى داود بن ميكائيل وعرَّفه خدمته، وأخذ بيده وسلَّمه إلى ألب أرسلان، فقال: يا محمد، هذا حسن الطوسي، فتسلَّمْه واتَّخِذْه والداً ولا تُخالِفْه. فلمَّا وصل إلى ألب أرسلان دبَّر دولتَه أحسن التدبير عشرَ سنين، ومات ألب أرسلان، فازدحم أولاده على الملك، فوطده لولده ملك شاه، ولمَّا دخل على المقتدي أمره بالجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك لرضا أمير المؤمنين عنك. وكان مجلسه عامراً بالعلماء والصُّلحاء، حتى كانوا يشغلونه عن كثير من مهام الدولة، فقال له بعض كُتَّابه: قد بسطت هذه الطائفة في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية، فلو حجبتَهم وأذِنْتَ لمن شئت، وأمرت بأن لا يُضيِّقوا عليكَ مجلسك، وإنما

(١) في (خ): مكرمات، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): قطع، والمثبت من (ب) وتاريخ الإسلام ١٠/ ٤٧٩. والخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ٣٠١.

(٣) المنتظم ١٦/ ٣٠٢ - ٣٠٧، والكامل ١٠/ ٢٠٤-٢١٦.

يجلسوا ناحيةً. فقال له: ويحك، هذه الطائفة أركان الإسلام، وجمال الدنيا والآخرة، فلو أجلستُ كلَّ واحد منهم على رأسي لما استكثرتُ له ذلك ولا استقللتُه.

وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي بن الجويني قام لهما وأجلسهما إلى جانبه، وإذا دخل عليه أبو علي الفارْمَذي قام له وأجلسه في طراحته وجلس بين يديه، فامتعض من ذلك القشيري وابن الجويني، وقالا للحاجب: نحن أولى بالإكرام من الفارمَذي. فأبلغَ الحاجبُ النظامَ ما قالا، فقال: القشيريُّ وابنُ الجويني وأمثالُهما إذا دخلوا عليَّ أضرُّوني، وقالوا: أنتَ وأنتَ، ووصفوني بما ليس فيَّ، فيزيدُني كلامُهُم تِيهاً، والفارْمَذي إذا دخل عليَّ وعظني وزجَرَني ويذكر لي عيوبي وظلمي فأنكسر وأنتفع به، وأرجع عن كثيرٍ ممَّا أنا فيه، وكان يُعظِّم الصوفية ويُحبُّهم، حتى إنه أعطى بعضَ متمنِّيهم في أوقاتٍ ثمانينَ ألف دينار.

وسأله التميمي عن سبب تعظيمه إيَّاهم، فقال: كنتُ في خدمة بعض الأمراء، فأتاني صوفيٌّ فقال: اخدُمْ من تنفعُكَ خدمتُه، ولا تخدُمْ من تمزِّقُه الكلاب غداً. فلم أفهم معنى قوله، وكان الأمير يشرب الخمر، فشرب في تلك الليلة، وكانت له كلابٌ كالسباع الضارية تدور حول خيمته وتفترس الغرباء، فغلبه السُّكْرُ، فخرج آخرَ الليل وحدَه، فلم تعرِفْه الكلاب فمزَّقَتْه، فعلمتُ أن الرجل كُوشِفَ بذاك، فأنا أطلب أمثالَه.

وكان النظام إذا سمع الأذان أمسك عما كان فيه، ويراعي أوقات الصلوات، ويصوم الاثنين والخميس، ويكثر الصدقة، وكان حليماً وقوراً، وبنى المدارس والرباطات في كلِّ بلد، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، وله بأصبهان نظاميةٌ وبغيرها، وصرف العناية إلى نظامية بغداد، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، منها سوق المدرسة وغيره، ونقل إليها الكتب الفائقة، وشرط أن يكون بها القُرَّاءُ والنُّحاةُ، وكان يُطلِقُ ببغداد في كلِّ سنة برسم الصِّلاتِ[1] عشرين ألف دينار وخمس مئة كُرٍّ غلَّةً.

ولمَّا بنى المدارس والرباطات في المفاوز والقناطر والجسور ونحوها سعى به أعداؤه إلى ملك شاه، وقالوا: قد ضيَّع عليكَ أموالاً عظيمةً في هذه الوجوه، وكان قد

(١) في (خ): الصلوات، والمثبت من المنتظم.

كتب على أبوابها اسم ملك شاه، فعاتبه [عليه][1] وقال: ضيَّعتَ الأموال في هذه الأشياء[2]؟ فقال له: يا ملك، لمَّا أقمتُ لكَ [العساكر تقاتل بين يديك، والأعداء بالنهار، أقمتُ لك] جنداً في الليل يصفُّون أقدامهم ويدعون لك وأنت نائم، وبعد هذا فانظُرْ في المال الذي غرمته في هذه الوجوه فأنا أحمله لك، وأمحو اسمك من أبوابها، وأكتب اسمي، ليبقى لي ذِكْرُها وأجرُها. فقال ملك شاه: لا واللهِ ما أريد أن أمحو اسمي من أماكن البر والصلة، وجزاك اللهُ خيراً فيما فعلتَ.

وعبر جَيحون، فأطلق للملَّاحين عشرة آلاف دينار على عامل[3] أنطاكية، وشكى إليه الفرَّاشون وهو بما وراء النهر تأخيرَ جامكياتهم[4]، فوقَّع لهم على مال الهدنة إلى القسطنطينية، فقيل له: بالأمس تُطلِقُ على أنطاكية واليوم على القسطنطينية؟ فقال: قصدتُ إظهار هيبة الملك الذي أنا في خدمته في الدنيا وأنَّ أحداً من الملوك ما وصل إلى هذا، وملَكَ من الغلمان ألوفاً، ومن المال ما لا يُحصى، ومع هذا فكان يتمنى الانقطاع إلى الله تعالى، ويقول: أتمنَّى أن تكون لي قريةٌ ومسجدٌ أتخلَّى فيه بطاعة ربي. ثم قال بعد ذلك: تمنَّيتُ قطعةً من الأرض أتقوَّتُ بها [وأتخلَّى في مسجد. ثم قال بعد ذلك: أتمنَّى أن يكون لي رغيفٌ كلَّ يوم وأتعبَّد في مسجد].

وقال: رأيتُ إبليس في المنام، فقلتُ له: ويلَكَ، خلقك الله ثم أمركَ بسجدةٍ فلم تفعل، وأنا حسنٌ أمرني اللهُ بالسجود، فأنا أسجد له كلَّ يوم سجدات. فقال: [من مخلع البسيط]

مَنْ لم يكُن للوصال أهلاً ... فكلُّ إحسانِهِ ذنوبُ

وقال التميمي: كان قد وظف على الهند والروم والترك وظائف في كل سنة، فكان يطلق في بلاد ساقون والصين وما وراء القسطنطينية جامكيات الفراشين والغلمان، وهذا شيء ما جرى لغيره.

---

(١) مابين حاصرتين وفي الموضع الآتي من (ب).

(٢) في (ب): الوجوه.

(٣) في (ب): عمل.

(٤) في (ب): جوامكهم. والجامكيات: الأُعطيات والمرتبات الشهرية أو السنوية.

ذكر مقتله:

واختلفوا في السبب على أقوال:

أحدها: أنه طال عمره فخدم ألب أرسلان وملك شاه تسعاً وعشرين سنة، أخرج أموالاً عظيمة، وكثر عليه أعداؤه عند ملك شاه. فوضع عليه من قتله.

والثاني: أنَّ ملك شاه بعث بعض مماليكه إلى مرو والياً، وكان بها ابنُ نظام الملك مقيماً، فعسف المملوك الناسَ وظلم، فقبض عليه ابنُ نظام الملك، فسُئِلَ فيه فأطلقه، فجاء إلى ملك شاه واستغاث بين يديه وبكى، وقال: ما فعلَ هذا إلا بك. فغضب ملك شاه، واستدعى أرباب دولته وقال لهم: امضوا إلى خواجة حسن وقولوا له: إن كنتَ شريكي في ملكي فلذلك حُكم، وإن كنتَ تابعي[1] فيجب أن تلزم حدَّك، وهؤلاء أولادُك قد استولَوا على الدنيا، و لا يُقنعهم ذلك حتى يخرقوا الحرمة[2]. فجاؤوا إليه وأبلغوه كلامه، فقال: قولوا له: ما علِمَ أنني شريكُه في الملك إلى اليوم؟! وهل بلغ ما بلغ إلَّا بتدبيري؟ أو ما يذكر لمَّا قُتِلَ أبوه كيف جمعتُ الناس عليه وكان قد تطاول إلى هذا الأمر إخوتُه وعمُّه فأبعدتُهم وقرَّرتُ الملك فيه، وعبرتُ النهر، وفتحتُ البلاد، وحكمتُ على الدنيا، وجعلتُ ملوكها طوعاً له؟ وبعد هذا فقولوا له: إن ثبات قَلنسوةٍ على رأسه معذوق[3] بفتح هذه الدَّواة، ومتى أُطبقَتْ هذه زالَتْ تلك. فعادوا إليه وأخبروه بما قال، فخاف، واتَّفق مع تاج الملك على التدبير عليه، وأن يُفوِّض الأمر إلى تاج الملك أبي الغنائم.

والثالث: أن ملك شاه [كان][4] قد عزم على تشعيث الأمر على الخليفة، وأن يقيم خليفةً على حكم إرادته، وأطلع النظام على ذلك، فسفَّه رأيَه وقال: الله الله، لا يجوز ذلك شرعاً ولا عقلاً. فاطَّلع تاج الملك رأيَه[5]، فصوَّب رأيه وقال: اقتل النظام لتستريح منه.

---

(١) في (خ) و(ب): متعالي، وفي الكامل ١٠/ ٢٠٥: نائبي، والمثبت من المنتظم ١٦/ ٣٠٥ ، وبغية الطلب ٥/ ٢٤٩٥ .

(٢) في المنتظم: حتى يخرجوا من الحرمة.

(٣) معذوق: مُعلَّق.

(٤) مابين حاصرتين من (ب).

(٥) العبارة في (خ): فاطَّلع ملك شاه تاج الدولة، والمثبت من (ب).

والرابع: أن خاتون طلبت من ملك شاه أن يعهد إلى[١] ابنها محمود، فشاور النظام فقال له: بأيِّ وجهٍ تلقى الله غداً وقد وَلَّيتَ على المسلمين امرأةً وصبياً ولك أولاد كبار؟ فاتفقت خاتون وملك شاه وتاج الملك على قتله.

ذكر كيفية قتله:

كان ملك شاه قد خرج من أصبهان غُرَّة رمضان يقصد بغداد، وسار نظام الملك بعده، فنزل بقرية من قرى نهاوند مكان الوقعة التي كانت في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: هذا موضعٌ مباركٌ قُتِلَ فيه جماعة من الصحابة، وطوبى لمن كان منهم. وكان جالساً والملوك والأمراء بين يديه، وكان صائماً يوم الخميس، فتقدم إليه رجل من الأجناد فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ قد أتاك وأنت في مِحفَّةٍ فأخذك منها. فاستبشر النظام وقال: الحمد لله بشارةُ خير، وهل أريد وأبغي إلا هذا؟ فلما فرغ الناسُ من الأكل حُمِلَ النظام في مِحفَّةٍ إلى خيمة النساء، وكان به نقرس، فاعترضه صبيٌّ ديلميٌّ في زيِّ الصوفية وبيده قصبة، فدعا له، وسأله أن يناوله إيَّاها من يده إلى يده، فقال: هاتِ. فمدَّ يدَه، فضربه بسكين في فؤاده، فحُمِلَ إلى مضربه فمات، وهرب الديلميُّ، فتعثَّر بطُنْب خيمة فقُطِّع قِطَعاً.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وثب عليه رجل ديلميٌّ من الباطنية، فقتله وهرب من ساعته، فطُلِبَ فلم يوجد، ولا ظهر له خبر، ولا بان له أثر، فأسف الناس [وتألَّموا][٢] لِما أصاب نظام الملك، وتضاعف حزنُهم لفقد مثله؛ لما كان عليه من حسن الطريقة، وإيثار العدل في النصفة، والإحسان في أهل الدين والفقه والقرآن والعلم، وحبِّ الخير، وحميد السياسة، وما كان قد أثر من الآثار الحسنة في البلاد، بحيث كان رزقُه على اثني عشر ألف إنسان من فقيه وغيره، وحزن السلطان ملك شاه عليه، وتأسَّف لفقده، وذلك ليلة الجمعة عاشر رمضان، ونظام الملك أولُ من قتَلَتْه الباطنية، وكان عمره ستاً وسبعين سنة وعشرة أشهر وأياماً.

ووَزَر لألب أرسلان وملك شاه على نسق واحد تسعاً وعشرين سنة.

---

(١) العبارة في (خ): أن يقبض على، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

وقال محمد بن الصابئ: وقيل: محمد بن عبد الملك الهَمَذاني [وَزَر لهما أربعاً وثلاثين سنة. وقال العماد الأصفهاني]: وزَرَ لهما حدود أربعين سنة.

ومن شعره: [من مخلع البسيط]

بعد الثمانينَ ليسَ لي قوةٌ ... لهفي على قوةِ الصُّبوَّة
كأنَّني والعصا بكفِّي ... موسى ولكِنْ بلا نُبُوَّة

ووصل نعيُ نظام الملك إلى بغداد يوم الأحد ثامن عشر رمضان، فجلس عميد الدولة للعزاء ثلاثة أيام في الديوان، وحضر الناس على طبقاتهم وحزنوا عليه، ولم يتخلَّف عن العزاء سوى الخليفة، وتأسَّف عليه؛ لأنه كان يعظِّمه عند السلطان، ويُزيِّنه في عينيه، ويمنعه من الإقدام عليه، ويقضي حوائجه، ويوصل إليه أشياءَ كانت خارجةً عن إقطاعه.

أسند نظامُ الملك الحديثَ، وحدَّث بمرو ونيسابور والري وأصفهان وبغداد وفي مدرسته وبجامع المهدي، وكان يقول: إني لأعلمُ أني لستُ من أهل الرواية للحديث النبوي، لكن أريد أن أربط نفسي على قطار النَّقَلةِ لحديث رسول الله ﷺ.

وحدَّث عنه جماعة، منهم: أبو الفضل الأرموي، وأبو القاسم بن العُكْبَري.

قال مقاتل بن عطية يرثيه: [من البسيط]

كانَ الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغَها الرحمنُ من شَرَفِ
عَزَّتْ فلم تعرفِ الأيامُ قيمتَها ... فردَّها غَيْرةً منهُ إلى الصَّدَفِ

وقال: [من الكامل]

قد قلتُ للرجل المُولَّى غسْلَهُ ... لو قد أطاعَ وكنتُ من نُصحائِهِ
جنِّبهُ ماءَكَ ثمَّ غَسِّلهُ بما ... أبكَتْ عيونُ المجدِ من آلائِهِ
وأزِلْ أفاوية[1] الحَنوطِ وطِيبَهُ ... عنهُ وطيِّبْهُ بطيبِ ثنائِهِ
لا تُوهِ أعناقَ الرجالِ بحَمْلِهِ ... يكفيه ما فيهنَّ مِنْ نَعْمائِهِ
ومُرِ الكرامَ الكاتبينَ بحَمْلِهِ ... شَرَفاً ألستَ تراهُمُ بإزائِهِ

(١) الأفاويه؛ جمع أفواه، وأفواه جمع فُوه: وهو ما يعالج به الطيب. الصحاح (فوه).

وقال التميمي: كان نظامُ الملك مُمدَّحاً، يقال: إنَّ مُدَّاحه كانوا خمسة آلاف وزيادة، والقصائد التي مُدِح بها ثلاث مئة ألف قصيدة.

وقال علي بن عقيل: رأينا في زماننا في أوائل أعمارنا أُناساً طاب العيش معهم من العلماء والزُّهاد وأعيان الناس، وأما نظام الملك فإنَّ سيرته بهرت العقول جوداً وكرماً وحشمةً وإحياءً لمعالم الدين، فبنى المدارس، ووقف عليها الوقوف، وأنعش العلم وأهله وعمَّ الحرمين، وأكثر الصدقات، وفتح أبواب البرِّ والصِّلات، وكانت أسواق العلم في أيامه قائمة، وما ظنُّكَ برجل كان الدهر في خفارته؛ لأنه قد أفاض من الإنعام ما أرضى به الناس، وإنما كانوا يذمُّون الدهر لضيق الأرزاق واختلال الأحوال، فلمَّا عمَّهم إحسانُه سكتوا عن ذمِّ الدهر، وتُرِكَ الناسُ بعده موتى، أمَّا أهل العلم والفقر ففقدوا العيش بعده بانقطاع الأرزاق، فمات العلم، وأمَّا الصدور والأغنياء[1] فكانوا مستورين بالغَناء عنهم، فلمَّا عرضت الحاجات إليهم عجزوا عن تحمُّلِ بعض ما عوَّدَ نظام الملك من الإحسان، فانكشفَتْ أحوالُهم، وبانت معايبُهم، وضيقُ أخلاقِهم، فهؤلاء موتى بالذمِّ، والآخرون موتى بالحاجة، وأما هو فحيٌّ بعد موته بمدح الناس لأيامه، ثم خُتِمَ له بما خُتِمَ من الشهادة، فكفاه أمرَ أخراه كما كفى أهلَ العلم أمرَ دنياهم، ولقد كان نعمةً من الله على أهل الإسلام فما شكروها، فسُلِبوها.

ذكر أعيان شعرائه وأصحابه:

منهم أبو طالب علي بن الحسن العلوي، مدحه بأبيات[2] فقال: [من الوافر]

نظامُ المُلكِ عِشْتَ مع السرورِ ... مُوفَّى الدَّستِ محفوظَ السَّريرِ
ودُمْتَ مُخلَّداً مَلِكاً عزيزاً ... دوامَ الطينِ فينا والسَّريرِ
ومَنْ والاكَ مرفوعُ السَّواري ... ومَنْ عاداكَ مقطوعُ السَّريرِ
عليُّ القَدْرِ منصورُ السرايا ... إلى أن ينمحي أثرُ السَّريرِ
ولا زالَتْ أياديك اللَّواتي ... إذا عُدَّتْ تزيدُ على السَّريرِ
لتحيا في ذُراكَ الخلقُ طُرًّا ... حياةً في النعيمِ وفي السَّريرِ

(١) العبارة في (خ): وأنا الصدور ففقدوا العيش بعده! والمثبت من (ب).
(٢) بعدها في (خ) كلمتان غير واضحتين.

فغوثاً يا قوامَ الدين غوثاً فحالي في الوَضاعةِ كالسَّريرِ
وذلك إنما لو وَدَّ ظلماً تعرَّقَ مأبضي وأخاسَ ريري
قد استولى على حالي وأقعى كما يُقعي الهديرُ على السَّريرِ
لحاهُ اللهُ ثمَّ أراحَ منهُ وأركَبَه مربَّعةَ السَّريرِ[1]

ومن شعره أيضاً: [من الوافر]

سلَوْتُ عن الصِّبا ولهَيتُ عنهُ وقلتُ أجوبُ ميًّا فارقينا
لِما مارَسْتُ من سُعدى وسلمى وزينبَ قلتُ ميًّا فارقينا

ومن خواصِّ نظام الملك وأصحابه الكامل أبو الفضل المظفر بن أحمد عارض الحماسة، فنظم بإزائها، وهو القائل: [من الطويل]

إذا لم يكُنْ لي منكَ جاهٌ ولا غنى ولا عِنْدَما يغتالُني الدهرُ مُوئلُ
فكلُّ سلامٍ لي عليكَ تكرُّمٌ وكلُّ التفاتٍ لي إليك تفضُّلُ

وقال: [من الوافر]

شقينا بالنَّوى زمناً فلمَّا تلاقينا كأنَّا ما شَقِينا
سخِطْنا عندما جنتِ الليالي فما زالَتْ بنا حتى رضينا
سَعِدْنا بالوصالِ وكَمْ شَقِينا بكاساتِ الصُّدودِ وكَمْ بُلِينا
فمَنْ لم يحيَ بعدَ الموتِ يوماً فإنَّا بعدما مِتْنا حَيينا

ومن أصحاب نظام الملك أبو عبدالله الكناء، كان صاحبَ سرِّه وخازن كتبه، وله ولد اسمه شاه مَرْزُبان، ومن شعره: [من الوافر]

أميرُ الحُسْنِ رِفقاً بالرعايا فإنَّ العنفَ من شرِّ السَّجايا
ولا تسبِ القلوبَ وأنتَ فيها فأنتَ إذاً تكون من السَّبايا

(١) جاء على هامش (ب) معنى السرير في هذه الأبيات، ففي البيت الأول: التخت، وفي الثاني: الماء، وفي الثالث: العنق، وفي الرابع: خطوط الكف، وفي الخامس: الرمل، وفي السادس: خفض العيش، والسابع: التراب، والتاسع: الأكمه، والعاشر: النعش. وقد ذكر عند البيت الثامن شارحاً قوله: "تعرَّق مأبضي" هو المأبض العَرِق، ثم قال: والرِّير: المخ.

وصِلْني واشْفِ نفسي من جَواها فقد عذَّبْتَني هجراً ونايا
وكان هواكَ أبقى بعضَ صَبْري فقد ضربَ الفراقُ على البقايا

ومن أصحاب نظام الملك أبو نصر الزَّوزني، وهو القائل: [من الطويل]

ولا أقبَلُ الدنيا جميعاً ببذلِهِ ولا أشتري عِزَّ المراتبِ بالذُّلِّ
وأعشَقُ كحلاءَ النَّواظرِ خِلْقةً لئلا تُرى في عينها مِنَّةُ الكُحْلِ

ومن أصحابه أسعد بن علي الزَّوزني البارع. قال المصنف رحمة الله عليه: ويُعرف بالبارع أيضاً، أبو منصور بن حيدر الخراساني، هجى الأبيوردي فقال: [من السريع]

وليلةٍ بِتُّ بها نافضاً أضالعي من شدة البردِ
كأنَّما تنفضُ آفاقُها على الرُّبا شعرَ الأبيوردي

فقال الأبيوردي: [من الكامل]

هاتيكَ نيسابورُ أشرفُ خُطَّة بُنِيَتْ بمُعتَلجِ الفضاءِ الواسعِ
لكِنْ بها بَرْدانِ بردُ شتائها إمَّا شتوتَ وبَرْدُ شعْرِ البارعِ

ذكر أولاده:

وزَرَ منهم جماعةٌ للخليفة والملوك، فأحدهم: أحمد وزَر لمحمد بن ملك شاه والمسترشد. والثاني: علي، وزَرَ لتاج الدولة تُتُش، ولقبه فخر الملك، والثالث: مؤيد الملك عبيد الله، وزَرَ لبركياروق، ثم استوزر بركياروق فخر الملك، وعزل مؤيد الملك، وكان له الحسين عز الملك وعبد الرحيم وغيرهم.

عبد الباقي بن محمد[1]

ابن الحسين بن داود بن ناقيا، أبو القاسم، البغدادي، ولد سنة عشر وأربع مئة، وتُوفِّي في المُحرَّم.

قال أبو الحسين علي بن محمد الدهان: دخلتُ عليه لأُغسِّله بعد موته، فإذا يده مضمومة، فاجتهدت في فتحها، وإذا فيها مكتوب: [من الطويل]

(١) تنظر الترجمة في المنتظم ١٦/ ٣٠٨-٣١٣.

نـزلـتُ بـجـارٍ لا يُـخَـيَّـبُ ضـيـفُـهُ أُرَجِّـي نـجـاتـي مـن عـذابِ جـهـنَّـمِ
وإنِّـي عـلـى خـوفٍ مـن الـلـهِ واثـقٌ بـإنـعـامـهِ والـلـهُ أكـرَمُ مُـنـعِـمِ

ملك شاه بن ألب أرسلان[1]

ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق، أبو الفتح، جلال الدولة، كانت له أفعال في الخيرات كثيرة، وفي العزل غريبة عجيبة، يُنصف المظلوم من الظالم، ويردع العساكر عن العظائم والمآثم، وأسقط الضرائب والمكوس من بلاده، وكان مبلغها ألفي ألف دينار، وكان حسنَ الوجه، كريمَ الأخلاق، عظيمَ الخِلْقة، كثيرَ الركوب، لا يستقرُّ في مكان، وكان حسنَ السيرة، عمر القناطر والجسور، وأسقط الضرائب والمكوس، وحفر الأنهار، وبنى الجامع على باب بغداد والمدرسة التي تقابل مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان حنفيًّا، وبنى وراء النهر منارةً من قرون الغزلان، وبنى أخرى مثلها ظاهر الكوفة، وقالوا: قال: أحصوا ماصِدْتُ بنفسي من الصيود، فأُحصي، فكان عشرة آلاف صيد، فتصدَّق بعشرة آلاف دينار، وقال: إني خائف من الله تعالى من إزهاق روحٍ لغير مأكلة.

وخُطِبَ له من أقصى بلاد الترك والصين إلى أقصى اليمن، وراسله الملوك، حتى قال نظام الملك: كم من يومٍ قد وقَّعتُ بإطلاق إقاماتٍ لرسل ملك الروم، ورُسلِ ملك اللَّان والخزر والزنج والسند والهند والصين والشام واليمن وفارس والأهواز وغير ذلك.

وكان خَراجُ هذا السلطان في السنة عشرين ألف ألف دينار، وكانت السُّبُلُ في أيامه آمنةً، ونيَّتُه في الخير جميلةً، تقف له المرأة والضعيف، فيقف لهم، ولا يبرح من مكانه حتى ينصفهم، وصان دُورَ البلاد عن ترك العساكر، وصان حريمَهم، وكانت له هيبةٌ لم تكن لغيره، ولمَّا توجَّه إلى قتال أخيه تُتُش اجتاز بطوس، فنزل عند تربة علي بن موسى الرضا رحمة الله عليهما ومعه النظام، فترجَّل وصلَّى ودعا وتصدَّق بمال على العلويين، فلمَّا خرج قال: يا حسن، ثم دعوتُ فقال: بأن يظفرك الله بأخيك. فقال:

(١) المنتظم ١٦/ ٣٠٧-٣٠٨، والكامل ١٠/ ٢١٨.

لكني قلت: يا إلهي، إن كان أخي أصلحَ للمسلمين مني فظفِّرْه بي، وإن كنتُ أصلحَ منه فظفِّرْني به.

وركب يوماً للصيد، فلقيه سواديٌّ يبكي، فوقف وقال: مالك؟ فظنَّه بعضَ الأمراء، فقال: كان معي حمل بطيخ هو بضاعتي، فدخلتُ إلى هذا العسكر لأبيعه، فالتقاني ثلاثةٌ من الغلمان، فأخذوه. فقال له: امضِ إلى العسكر، فهناك خيمةٌ حمراءُ فاقعُدْ عندها حتى أرجع وأُعطيك ما يغنيك. فمضى الرجل، وقعد عند الخيمة، وعاد السلطان، فقال للشرابي: قد اشتهيتُ بطيخاً. ففتَّش خِيَمَ العسكر، فمضى وعاد وأحضر البطيخ فقال: وأين كان هذا؟ قال: في خيمة فلان الحاجب. فقال: أحضِرْه. فحضر فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جابه الغلمان. قال: أريدهم الساعة. فمضى وقد أحسَّ الغلمان بالشر، فهربوا، فعاد الحاجب وقال: هربوا لمَّا علموا أن السلطان يطلبهم، فقال: أحضروا السواديَّ. فحضر فقال: هذا بطيخك؟ قال: نعم. قال: خذه، وهذا الحاجب مملوك أبي ومملوكي، وقد سلَّمتُه إليك، ووهبتُه لك، ووالله لئِنْ تركتَه لأضربنَّ عنُقَك، وقد هرب الغلمان وتعيَّنَ هو. فأخذ السواديُّ بيده وأخرجه، فاشترى نفسه منه بثلاث مئة دينار، وعاد السواديُّ إلى السلطان، فقال: قد بعتُ المملوكَ الذي وهبتَه لي بثلاث مئة دينار. فقال: ورضيت؟ قال: نعم. قال: اقبِضْها وامْضِ مُصاحَباً.

ولقي مرةً تُجَّاراً على عقبة ضيقة، ومعهم بغال عليها أثقال وأحمال[1]، فأراد أصحابُه يُنحُّون البغال إلى جانب الجَبَل، فنهاهم وقال: نحن يمكننا أن نصعد إلى الجبل، وهذه بغال مُحَمَّلة وعليها أثقال، وفي ترقيتها إلى الجبل خطر. فتنحَّى إلى الجبل ووقف حتى مضت البغال وساق.

ولقي امرأةً تمشي فقال لها: إلى أين؟ فقالت: إلى الحج. فأخرج ما كان في خريطته من الدنانير، فطرحه إليها في إزارها وقال: اكتري بهذه، وأنفقيها عليكِ.

(١) في (خ): عليها أحمال ثقال، والمثبت من (ب).

وجاء إليه تركمانيٌّ قد لزم تركمانيًّا آخر وقال: هذا وجدتُه مع ابنتي قد انثنى بها، وأريد أن تأذن لي في قتله. فقال: لا، ولكن تُزوِّجها به، ونُعطي المهر من خزانتنا عنه. فقال: لا أقنع إلا بقتله. فسَلَّ السلطانُ السيفَ وأعطاه إيَّاه، وأمسك بيده الجفن، وأمره أن يعيد السيف إلى الجفن، فكلَّما رام الرجلُ ذلك لم يُمكِّنه السلطان، وقال: مالَكَ لا تُدخل السيفَ فيه؟ فقال: ما تدَعُني. فقال: كذلك ابنتُكَ. فبقي الرجلُ متحيِّراً وقال: الأمر إلى السلطان يفعل ما يشاء. فزوَّجه بها، وحمل المهر من الخزانة.

ودخل عليه بعض الوُعَّاظ فحكى له أنَّ بعضَ الأكاسرة انفرد عن عسكره، فجاز على باب بستان، فاستسقى ماءً ليشرب، فأخرجَتْ له صبيةٌ إناءً فيه ماء قصب السكر والثلج، فشربه واستطابه، وقال: هذا كيف يُعمل؟ فقالت: إنَّ قصب السكر يزكو عندنا حتى يُعصر بأيدينا فنُخرج منه هذا الماء. فقال: أحضريني منه شيئاً آخر. فمضت وهي لا تعرفه، فنوى في نفسه اصطفاء المكان لنفسه وتعويضهم عنه، فما كان بأسرع من أن خرجت وهي باكية، فقال لها: مالَكِ؟ فقالت: نيَّةُ سلطاننا قد تغيَّرتْ علينا. فقال لها: من أين علمتِ؟ فقالت: كنتُ آخذُ من هذا الماء ما أريدُ من غير تعسُّف، والآن فقد اجتهدتُ في العصر فلم يسمح بشيء مما كان يخرج عفواً. فعلم صدقها وقال: ارجعي الآن فإنك تبلغين الغرض. ونوى أن لا يفعل ما عزم عليه، فعادت وخرجت ومعها مثل الأول، فقال له ملك شاه: أنت تَحكي لي مثل هذا فلِمَ لا تحكي للرعية أنَّ كسرى اجتاز وحدَه على بستان، فقال للناطور: ناولني عنقوداً من الحصرم، فقد كظَّني العطش، واستولَتْ عليَّ الصفراء. فقال: لا أفعل؛ لأن السلطان لم يأخذ حقَّه منه، وما يُمكنني خيانتُه.

وسار من جَيحون إلى أنطاكية في مئة ألف، فما قدر أحدٌ يقول: إنَّ أحداً أخذ علاقة تبن بغير ثمنها.

ودخل بغداد ثلاث مرات فما نزل أحدٌ دارَ أحد، وكانت السُّوقةُ تمشي ليلاً ونهاراً تخترق عسكره، والسَّوادية يطوفون بالدجاج والتبن والبيض والخبز، والنساء يمشين بين الخيام، ولا يتعرَّض أحدٌ لأحد.

وأسقط من المكوس والضيافات ما قيمتُه ألفي ألف دينار، فكتب إليه النوَّاب: قد ضاقَتْ علينا الأمور، وتعطَّلت المصالح برفع هذه الضرائب، فكتب على رأس الرقعة: المالُ مالُ الله، والعبيدُ عبيدُ الله، والبلادُ بلاد الله، وإنَّما أنا واسطة، وما يبقى لي غير هذا، فمن راجعني فيه ضربتُ عنقه.

وقصده رجلان يُعرفان بابني غزال من قرية تُعرف بالحدادية فتعلَّقا بركابه وقالا: نحن من أسفل واسط من قرية مقطعة لخُمارتكين الحلبي صادَرنا على ألف وست مئة دينار، وكسر ثنيتي [أحدنا بيده][1] وقد قصدناك أيها الملك لتقتصَّ لنا منه، فقد شاع من عدلك ما حَمَلَنا على قصدك، فإن أخذتَ بحقِّنا كما أوجب الله عليك وإلَّا فاللهُ الحاكمُ بيننا وبينك. ونزل عن فرسه وقال: ليُمسِكْ كلُّ واحد منكما بطرف كُمِّي، واسحباني إلى دار حسن ـ يعني نظام الملك ـ فأفزعهما ذلك، ولم يُقدِما عليه، فأقسم عليهما إلَّا فعلا ذلك، فأخذ كلُّ واحد منهما بطرف كمِّه وسارا به إلى باب النظام، وبلغه الخبر، فخرج مسرعاً، وقبَّل الأرضَ بين يديه، وقال: أيها الملك[2] المُعظَّم ما حملَكَ على هذا؟ فقال: كيف يكون حالي غداً عند الله تعالى إذا طولبتُ بحقوق المسلمين وقد قلَّدتُك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا الموقف؟ فإن تَطرَّقَ على الرعية ثَلْمٌ لم يتطرَّقْ إلا بك، وأنت الطالب فانظُرْ بين يديك. فقبَّل الأرض وسار في خدمته، ثم عاد فكتب بعزل خُمارتِكين وحلِّ إقطاعه، وردِّ المالِ عليهما، وقلع[3] ثنيَّتيه إن ثبت ذلك عليه بالبينة، ووصلهما نظام الملك بمئة دينار وأعادهما من وقتهما.

واستحضر ملك شاه مغنيةً مستحسنةً بالري فأعجبَتْه، فتاقَتْ نفسُه إليها وأرادها، فقالت له المغنية: إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يُعذَّب بالنار، إن بين الحلال والحرام كلمة. فقال: صدقتِ، وتزوَّجها.

وقال الجرجاني الواعظ وكان خِصِّيصاً بملك شاه: كانت الباطنية قد أفسدَتْ عقيدته، فكان يقول لي: أيش هو الله؟ وإلامَ تشيرون بقولكم: الله؟ فذكرتُ له أدلة

(١) مابين حاصرتين من (ب)، والعبارة في المنتظم: فكسر ثنيتي أحدنا والثنيتان بيده.

(٢) في (ب): أيها السلطان.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: وقطع، والتصويب من (ب) والمنتظم.

النقل، فقال: أريد جواباً حسناً. فكتبتُ إليه: أيها السلطان، إنَّ هؤلاء الجُهَّال يطلبون الله من طريق الحواس والمشاهدة، والله تعالى لا يُعلَم من حيث الحسِّ؛ لأنه مُباينٌ له فجحدوه، وإنما يُعلَم من حيث النقل والعقل، ولابدَّ لهذه الموجودات من صانعٍ صنعها، وخالقٍ ابتدعها، وإلَّا فذهبت فائدةُ الوجود، وذكرتُ كلاماً في هذا المعنى، فقال لي: صدقتَ، ولعنَ اللهُ أولئك القائلين ماقالوا.

ذكر وفاته:

وسببها أنه خرج إلى الصيد بعد صلاة عيد الفطر، فأكل من لحم الصيد فأُتْخِم، فافتصد وحُمَّ. وقيل: إنه طرقَتْه حُمَّى حادَّة فجأةً. وقيل: إن خردك سمَّه[1] في خلال تخلَّل به، فأقام مريضاً مشغولاً بنفسه، مات ليلة الجمعة منتصف شوال، فكان بينه وبين نظام الملك ثلاثةٌ وثلاثون يوماً، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، ومدة ملكه تسع عشرة سنة وستة أشهر.

وأُخرج ليلاً من دار المملكة إلى الشونيزية يحمله رجلان، ولم يُصَلِّ أحدٌ عليه؛ لأنهم كتموا موته[2].

قال السِّمناني: خرج السلطان يوم العيد بعد وصوله إلى العراق في المرة الثالثة، وذلك يوم السبت، فرجع إلى داره يوم الخميس، ولم يَصِلْ إليه أحدٌ من خواصِّه، فكأنه اختُلِسَ من بين العالم، فلم يُصَلَّ عليه، ولا ظهرت له جنازة، ولا حُذِفَ عليه ذنَبُ فرس، ولا بكى عليه باكٍ، ولم يُسمع بملك في الإسلام ملك من كاشغر إلى القدس طولاً ومن القسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً سواه، وكان في مملكته جميعُ ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة وحلب والشام، وخُطِبَ له على جميع منابر الإسلام إلا[3] المغرب، وأسقط المكوس من تركستان إلى الشام، وحفر المصانع بطريق مكة، وبنى الربط والخانات في المفاوز، وبنى ببغداد

(١) العبارة في (خ): إنه جردك سمكة! والمثبت من (ب) والمنتظم.

(٢) في (ب): أمره.

(٣) في (خ): إلى، والمثبت من (ب).

داراً وأضافها إلى دار المملكة، وحفر بالعراق نهر شبلي والأسحقي وسابروج، فأخرج من النهروان أنهاراً، وكان يحب العمارة والعدل.

قال ابن الهمذاني: وفتح الرُّها وقلعة جَعْبَر وغيرَها، وبلغت عساكرُه إلى القسطنطينة، وأجرى الماء إلى الحرمين، وأجرى على المجاورين الأرزاق، وأزال المواخير من الدنيا، والخمورَ من جَيحون إلى الشام.

وكان الرجل يسير وحده من كاشغر إلى اليمن، ولم تَزَلْ دولتُه في إقبال من السعادة وسَعة العطاء بجميع الخلائق من الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء والأدباء والأغنياء والفقراء، وهو أول من صلَّى العيدين من الملوك ببغداد على مذهب أبي حنيفة ﷺ بالتكبير.

وكان جواداً، سمحاً، شجاعاً، يباشر الحروب بنفسه، ولم يَلِ من أول الإسلام إلى زمانه من هذه أوصافه ولا من عمَّ[1] الدنيا فضلُه وإنصافُه، وكانت سعادتُه بسعادة وزيره نظام الملك مقرونة، وظهرت الأسرار التي كانت في طيِّ الأقدار مخزونة.

ولمَّا تُوفِّي ضبطَتْ زوجتُه خاتون تركان بنت الخان الأمورَ أحسنَ ضبط، فلم يلطِمْ عليه أحدٌ، ولم يشُقَّ ثوباً، وبعثت بخاتمه مع قوام الدولة إلى أصبهان بتسليم قلعتها، وساستِ الأمورَ سياسةً عظيمةً، وفرَّقت في العساكر عشرين ألف ألف دينار، وبعثت إلى الخليفة بتقرير ولدها أبي القاسم محمود وعمره يومئذ خمس سنين وعشرة أشهر، فبعث إليها الخليفة بالخِلَع مع عميد الدولة ابن جَهير، وعزَّاها في السلطان، فألبسها محموداً، وخُطِبَ له على المنابر ببغداد، واستوزرت له تاجَ الملك أبا الغنائم المَرْزُبان بن خسرو، وكان السلطان قد هيَّأ له خِلَع الوزارة ليقيمه مقام النظام، فعاجله القدر، فخلعت عليه خاتون، وفوَّضت الأمورَ إليه، ثم خرجت وابنَها وتاجَ الملك إلى أصبهان بالعساكر يوم الثلاثاء العشرين من شوال، وحُمِلَ الأميرُ أبو الفضل جعفر بن المقتدي إلى أبيه، ووصلت خاتون إلى أصبهان، وكتبت إلى الخليفة أن يكتب لابنها عهداً بالسلطنة، فقال: لا يجوز ذلك؛ لأنه لم يبلغ الحلم، وكتبوا فتاوى، فقال بعض الحنفية ويعرف بالمشطب ابن محمد: يجوز. وقال الغزالي: لايجوز. فأعجبَ الخليفةَ قولُ الغزالي.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

ولمَّا وصلت خاتون أصبهان وجدت غلمان نظام الملك قد أقاموا بركياروق بن ملك شاه في السلطنة، وكان أكبر أولاده [وأمُّه زبيدة][1] وخطبوا له بالملك، وانحاز إليه العساكر، وكان بالري، ولقَّبوه غياث الدين، فأخرجت خاتونُ ثلاثةَ آلاف ألف دينار، وأنفقَتْها في العساكر، وبعثت معهم تاجَ الملك أبا الغنائم، فالتقوا في عشر ذي الحجة بالري، فاستأمن أكثرُ العسكر إلى بركياروق، وانهزم تاج الملك فيمن بقي معه، فلحقه غلمان نظام الملك فقطَّعوه قِطَعاً ومثَّلوا به؛ لأنهم نسبوا قتل النظام إليه، ثم اتفق الصلحُ على أنَّ أصبهان وفارس لخاتون وابنها محمود، وباقي البلاد لبركياروق وهو السلطان، ثم جاء تاج الدولة تُتُش عم بركياروق لقتاله، فخرجت خاتون لتلقِّي تاج الدولة، ثم رجعت من جَرْباذَقَان، وجاء بركياروق إلى أصبهان طارحاً نفسه على أخيه محمود، ومستنجداً به على عمه تاج الدولة، فنزل محمود من السرير وأجلسه عليه، ثم مات محمود بعد قليل، فقيل: حُمَّ فمات. وقيل: كحله بركياروق.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: كان تُتُش قد خرج من دمشق إلى بغداد للقاء أخيه ملك شاه والخدمة له، فوصل الخبر بوفاته، فرجع إلى الرحبة وضايقها، فلم يستقِمْ له فيها أمر، فسار إلى دمشق وحشد، وعاد إليها، وكتب إلى آق سنقر صاحب حلب ومؤيد الدولة يغي شعبان صاحب أنطاكية يسألهما المساعدة، فجاءا بأنفسهما وأنجداه، وضايقها وملكها بالأمان، وكان قد نذر على نفسه متى ملكها شهر سيفَه فيها، فلمَّا دخلها شهر سيفه عند بابها ثم أغمده، فقال: قد وفيتُ بنذري، وأحسن إلى أهلها، وسار إلى نَصيبين، وقد كان إبراهيم بن قريش رجع إلى أعماله الموصل وأعمالها، وغلب ولد أخيه شرف الدولة محمداً وأبعده عن الولاية، ولمَّا نزل تُتُش على نَصيبين خرج إليه واليها طائعاً، وعصاه الجند الذين كانوا بها من أصحاب إبراهيم بن قريش، فملكها بالسيف، وهدم قطعةً من سورها، وقتل كلَّ من التجأ إلى الجامع والمساجد، وهتك أصحابُه البناتِ وفضحوهنَّ، وقتل ألفي رجل، وجرى على المسلمين منه مالا يستحِلُّه الكفار، وكان الأتراك يباشرون النساء في الطرقات، وكان فتوحُها سنة سبع وثمانين وأربع مئة.

---

(١) في (خ): عمر، والمثبت من (ب).

المَرْزُبان بن خسرو[١]

أبو الغنائم، تاج الملك، الوزير، بنى التاجية ببغداد وتربة أبي إسحاق الشيرازي، وعمل لقبره ملبناً.

هبة الله بن عبد الوارث[٢]

ابن علي بن أحمد بن بوري، أبو القاسم، الشيرازي، أحد الرَّحالين في طلب الحديث، وحكى عن والدته فاطمة بنت علي [أنها[٣]] قالت: سمعت أبا زُرعة الطبري يقول: سافرتُ مع أبي إلى المدينة، فلحِقَتْنا إضاقةٌ شديدةٌ، فجلسنا عند الحجرة النبوية وبتْنَا طاويين. فقال أبي: يارسولَ الله، نحن أضيافُكَ. ونِمْنا، فانتبه أبي، وفي يده دراهم، فقال: يابُنيَّ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ وترك في يدي هذه الدراهم. قال: فأنفقنا منها إلى شيراز، وكانت وفاته بمرو بمرض البطن، وكان في كل مرة يقوم ويغتسل، فقام في تلك الليلة سبعين مرة، فدخل النهر ليغتسل فمات، وكان حافظاً متقناً، ثقةً صدوقاً، صالحاً ديناً.

السنة السادسة والثمانون وأربع مئة

فيها خطب تُتُش لنفسه بالسلطنة، وراسل الخليفةَ بأن يخطب له ويوعده، فماالتفت إليه، وكتب في الجواب: إنما تصلح للخطبة إذا حصلتِ الدنيا بحُكْمِك، والخزائنُ التي بأصبهان، وتكون صاحب المشرق وخراسان، ولم تُبقِ من أولاد أخيك من يخالفك، أما في هذه الحال فلا سبيل إلى ما التمسته، فلا تَعْدُ حَدَّ العبيد، ولْيَكن خطابُك ضراعةً لا تحكُّماً، وسؤالاً لا تجبُّراً، وإن أبيتَ قاتلناك وردَّيناك، وأتاك من الله مالا قِبَل لكَ به.

فلما وقف على ذلك سار إلى الموصل وبها إبراهيم بن قريش، فخرج إليه في بني عقيل، والتقوا على الهرماس فاقتتلوا، فقتل إبراهيم ، وقتل عليه أعيان بني عقيل، وكان علي بن مسلم بن قريش عند بركياروق، فأخبره فعزَّ عليه، وكتب إلى تُتُش يلومه

---

(١) المنتظم ١٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤ .

(٢) المنتظم ١٦/ ٣١٤ ، والكامل ١٠/ ٢١٨ .

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).